أثره فى زمن طويل .

ويُوصَف العذاب بأنه شديد لشدة المعذِّب سبحانه ؛ لأنه سبحانه إذا أخذ فأَخْذه أَخْذ عزيز مقتدر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾

أراد الحق سبحانه أنْ يُدلِّل على قوله لرسوله فى الآيات السابقة : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴿٣﴾ ﴾ [الأحزاب] فجاء بحادثة جمعتْ كل فلول خصومه ، فقد سبق أنِ انتصر عليهم متفرقين ، فانتصر أولاً على كفار مكة فى بدر ، وانتصر على اليهود فى بنى النضير وبنى قينقاع ، وهذه المرة اجتمعوا جميعاً لحربه ﷺ ، ومع ذلك لن يؤثر جمعهم فى الصدِّ عن دعوتك ، وسوف تُنصَر عليهم بجنود من عند الله .

إذن : فحيثية (وتوكل على الله) هى قوله تعالى : ﴿ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الأحزاب] النعمة : الشىء الذى يخالط الإنسان بسعادة وبِشْر وطلب استدامته ، وهذه الصفات لا تتوافر إلا فى الإيمان ؛ لأن استدامة النعمة فيه تعدَّتْ زمن الدنيا إلى زمن آخر دائم وباقٍ فى الآخرة ، وإنْ كانت نعمة الدنيا على قَدْر أسبابك وإمكاناتك ، فنعمة الآخرة على قَدْر المنعم سبحانه ، فهى إذن : نعمة النعم .

والله تعالى يخاطب هنا المؤمنين ، ومعنى الإيمان هو اليقين بوجود إله واحد له كل صفات الجلال والكمال ، والله سبحانه يكفى العقل أنْ يهتدى إلى القوة الخالقة الواحدة التى لا تعاند ، لكن ليس من عمل العقل أنْ يعرف مثلاً اسم هذا الإله ، ولا أن يعرف مراده ، فكان ولابُدَّ من البلاغ عن الله .

وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك بمَنْ يطرق علينا الباب ، فنتفق جميعاً بالعقل على أن طارقاً بالباب ، هذا هو عمل العقل ، لكن أمن عمل العقل أن نعرف مَنْ هو ؟ أو نعرف مقصده من المجيء ؟ وهذا ما نسميه التصور .

فآفة العقل البشرى أنه لم يقنع بالتعقل للقوة القاهرة الفاعلة ، فكان يكفيه أن يتعقل أن وراء هذا الكون قوةً ، هذه القوة لها صفات الكمال التى بها أوجدتْ هذا الكون ، فإنْ أردنا معرفة ما هى هذه القوة فلابُدَّ أنْ نترك هذا الطارق ليخبرنا عن نفسه ، ويفصح عن هدفه وسبب مجيئه ، ولا يتم ذلك إلا من خلال رسول يأتى من عند الله يخبرنا عن هذه القوة ، عن الله ، عن أسمائه وصفاته ومنهجه الذى ارتضاه لخَلْقه ، وما أعدَّه الله لمَنْ أطاعه من النعيم ، وما أعدَّه لمَنْ عصاه من العذاب .

فإنْ كذَّبنا هذا الرسول ، وطلبنا دليلاً على صدْقه فى البلاغ أخرج لنا من المعجزات ما يؤيده وما يحملنا على تصديقه ؛ لأنه أتى بلون مما ننبغ فيه نحن ، وفن من فنوننا ، ومع ذلك عجزنا عن الإتيان بمثله .

إذن : فالتعقُّل أول مراحل الإيمان ؛ لذلك فإن أبسط ردٍّ على مَنْ يعبدون غير الله أن نقول لهم : بماذا أمرتكم آلهتكم ؟ وعمَّ نهتْكم ؟ وماذا أعدَّتْ لمن أطاعها ؟ وماذا أعدَّت لمنْ عصاها ؟ ما المنهج الذى تستعبدكم به ؟

فكان من منطق العقل ساعة يأتينا رسول من عند الله أنْ نستشرف له ، ونُقبل عليه ، ونسأله عن اللغز الذى لا نعرفه من أمور الحياة والكون ، كان علينا أن نستمع له ، وأن ننصاع لأوامره ؛ لأنه ما جاء إلا ليُخرجنا من مأزق فكرى ، ومن مأزق عقلى لايستطيع أحد منَّا أنْ يُحلَّله ، كان على القوم أن يتلهفوا على هذا الرسول ، لا أن يعادوه ويعاندوه ، لما لهم من سلطة زمنية ظنوها باقية .

وقوله تعالى : ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ .. ﴿٩﴾ ﴾[الأحزاب] ما هو الذكر ؟ العقل حين يتلقَّى المعلومات من الحواسّ يقارن بينها ويُغربلها ، ثم يحتفظ بها فى منطقة منه تمثل خزينة للمعلومات ، وما أشبه العقل فى تلقى المعلومات بلقطة (الفوتوغرافيا) التى تلتقط الصورة من مرة واحدة ، والناس جميعاً سواء فى تلقى المعلومات ، المهم أن تصادف المعلومة خُلوّ الذِّهْن مما يشغله .

وهذه المنطقة فى العقل يسمونها بؤرة الشعور ، وهى لا تلتقط إلا جزئية عقلية واحدة ، فإذا أردتَ استدعاء معلومة من الحافظة ، أو من حاشية الشعور ، فالذاكرة هى التى تستدعى لك هذه المعلومة ، وتُخرجها من جديد من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور .

ثم هناك ما يُسمَّى بتداعى المعانى ، حين يُذكِّرك شىء بشىء آخر ، وهناك المخيِّلة ، وهى التى تُلفِّق أو تُؤلِّف من المعلومات المختزنة شيئاً جديداً ، ونسميه التخيُّل ، فالشاعر العربى حين أعجبه الوشم باللون الأخضر على بشرة شابة بيضاء تخيَّلها هكذا .

خَـودٌ كـأنَّ بَنَـانَهَا فِـى نَقْشَـةِ الوَشْـمِ المُـزَرَّدْ[١]
سَـمَكٌ مِنَ البـلـلَّوْرِ فِـى شَبَكٍ تكوَّنَ مِنْ زَبَرْجَدْ[٢]

فهذه صورة تخيُّلية خاصة بالشاعر ، وإلا فَمَنْ منَّا رأى سمكاً من البللور فى شـبك من زبرجد ؟ فللشاعـر نظرته الخاصـة للصور التى يراها ، وسـبق أنْ ذكرنا الصـورة التى رسـمهـا الشاعـر[٣] للأحدب ، فقال :

قَصُرَتْ أَخَادِعُه[٤] وغَاصَ قَذَالُه[٥] فَـكَـأنَّهُ مُـتربِّصٌ أنْ يُصْـفَـعَا
وَكأنَّـمَـا صُفِعَـتْ قـفَـاهُ مَـرةً فَأحَـسَّ ثانيـةً لَهَـا فَتَجَـمَّـعا

ومنذ القِـدَم يعتبـر الشعـراء القلبَ محـلاً للحب وللمشـاعر ، لكن يخـرج علينا هـذا الشـاعـر بصورة أخـرى جـديدة من نَسْج خيـاله ، فيقول :

خَطَـرَاتُ ذِكْـرِكَ تَسْتَثِيرُ مَـودَّتِي فَـأُحِـسُّ مِنْها فِـى الفُؤادِ دَبِيبا
لاَ عُضْـوَ لِـى إلاَّ وَفيه صَـبَـابَةٌ فَـكَـأنَّ أعْـضَـائى خُلِقْنَ قُلُـوبَا

---

(١) الخود : الفـتاة الحـسنة الخَلْق الشابة ، مـا لم تَحض . وقيل : الجـارية الناعمـة . [لسان العرب ـ مـادة : خود] ، والمزرد : هى حلق الدرع متداخلة في بعضـها ، والمقـصود أن الوشم متقن متشابك متداخل .

(٢) الزبرجد : الزمرد ، وهو الزبردج أيضاً . [لسان العرب ـ مادة : زبرجد] .

(٣) الشـاعر هـو : ابن الرومى على بن العـباس بن جـريج . شـاعـر كبـيـر من طبـقة بشـار والمتنبى ، رومى الأصل ، كان جده من مـوالي بنى العبـاس ، ولد ببغـداد ٢٢١ هـ ونشأ بها ، ومات فيها مسموماً عام ٢٨٣ هـ عن ٦٢ عاماً . [الأعلام للزركلى ٢٩٧/٤] .

(٤) الأخادع : جمع الأخدع ، وهو أحد عرقين في جانبى العنق .

(٥) القذال : جماع مؤخر الرأس من الإنسان . [لسان العرب ـ مادة : قذل] .

فمعنى : ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ .. ۝٩ ﴾ [الأحزاب] لا تمروا على النعم بغفلة لرتابتها عندكم ، بل تذكروها دائماً ، واجعلوها فى بؤرة شعوركم ؛ لذلك جعل الله الذكر عبادة ، وهو عبادة بلا مشقة ، فأنت حين تصلى مثلاً تستغرق وقتاً ومجهوداً للوضوء وللذهاب للمسجد ، كذلك حين تزكى تُخرِج من مالك ، أما الذكْر فلا يُكلِّفك شيئاً .

لذلك فى سورة الجمعة حينما يستدعى الحق سبحانه عباده للصلاة ، يقول : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. ۝٩ ﴾ [الجمعة] فهنا حركتان : حركة إيجاب بالسعى إلى الصلاة ، وحركة سلْب بترْك البيع والشراء ، وكلّ ما يشغلك عن الصلاة .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا .. ۝١٠ ﴾ [الجمعة]

وفى موضع آخر قال : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۝٤٥ ﴾ [العنكبوت] فإياك أن تظن أن الله يريد أنْ تذكره ساعة الصلاة فحسب ، إنما اذكره دائماً وأبداً ، وإنْ كانت الصلاة لها ظرف تُؤدَّى فيه ، فذكْر الله لا وقتَ له ؛ لذلك جعله الله يسيراً سهلاً ، لا مشقة فيه ، لا بالوقت ولا بالجهد ، فيكفى فى ذكْر الله أنْ تتأمل المرائى التى تمر بها ويقع عليها نظرك لترى فيها قدرة الله .

والحق سبحانه يُذكِّرنا بنعمه ؛ لأن النعمة بتواليها على النفس البشرية تتعوَّد عليها النفس ، ويحدث لها رتابة ، فلا تلتفت إليها ، فأنت مثلاً ترى الشمس كل صباح ، لكن قلَّما تتذكر أنها آية من آيات الخالق - عز وجل - ونعمة من نعمه ؛ لأنك تعوَّدت على رؤيتها ، وأصبحت رتيبة بالنسبة لك .

كذلك يلفتنا الحق سبحانه إلى نعمه حين يسلبها من الآخرين ، فحين ترى السقيم تذكَّر نعمة العافية ، وحين ترى الأعمى تذكَّر نعمة البصر .. الخ وساعتها ينبغى عليك أنْ تشكر المنعم الذى عافاك مما ابتلى به غيرك ، إذن : فهذه الشواذ جعلها الله وسائل للإيضاح وتذكيراً للخلق بنعَم الخالق .

والنعمة وردتْ هنا مفردة ، وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا** (٣٤) ﴾ [إبراهيم] وقد وقف أعداء الإسلام من المستشرقين أمام هذه الآية يعترضون على أن النعمة فيها مفردة ، يقولون : فكيف تُعَدُّ ؟ وهذا الاعتراض منهم ناشئ عن عدم فَهْم لمعانى وأساليب القرآن .

ونقول : الذى تروْنه نعمة واحدة ، لو تأملتُم فيها لوجدتم بداخلها نعَماً متعددة تفوق العَدَّ ؛ لذلك استخدم القرآن هنا (إنْ) الدالة على الشك ؛ لأن نعمَ الله ليست مظنَّة العَدِّ والإحصاء كرمال الصحراء ، هل تعرَّض أحد لعدِّها ؟ لأنك لا تقبل على عَدِّ شيء إلا إذا كان مظنَّة العَدِّ ، وإحصاء المعدود .

لذلك ، فالحق سبحانه يوضح لنا : إنْ حاولتم إحصاء نعَم الله - وهذا لن يحدث - فلن تستطيعوا عدَّها ، مع أن الإحصاء أصبح علْماً مستقلاً ، له جامعات وكليات تبحث فيه وتدرسه .

ولك أنْ تأخذ نعمة واحدة من نعَم الله عليك ، ثم تتأمل فيها وفى عناصرها ومُكوِّناتها وفوائدها وصفاتها ، وسوف تجد فى طيَّات النعمة الواحدة نعَماً شتَّى ، فالتفاحة مثلاً فى ظاهرها نعمة واحدة، لكن فى ألوانها ومذاقها وعناصر مكوناتها ورائحتها واختلاف وتنوُّع هذا كله نعَم كثيرة .

والحق سبحانه جعل نعَمه عامة للمؤمن وللكافر ؛ لأنه سبحانه جعل لها أسباباً ، مَنْ أحسَنَ هذه الأسباب أعطتْه ، حتى لو كان كافراً .

ثم نلاحظ فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا (٣٤) ﴾ [إبراهيم] أنها وردتْ فى القرآن مرتين ، ولكل منهما تذييل مختلف ، فمرَّة يقول تعالى : ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم] . ومرة يقول : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) ﴾ [النحل]

وفيه إشارة إلى أن الله تعالى لو عامل المنعَم عليهم من الخَلْق بما يقتضيه إيمانهم ، وما يقتضيه كفرهم ، لأعطى المؤمن وسلَب الكافر ، لكنه سبحانه غفور رحيم بخَلْقه ، فبهاتين الصفتين يُنعم سبحانه على الجميع ، وما ترفلون فيه من نعَم الله عليكم أثر من آثار الغفران والرحمة ، فغفر لكم معايبكم أولاً ، والغفر : أنْ تستر الشىء القبيح عمَّن هو دونك .

ثم الرحمة ، وهى أنْ تمتدَّ يدك بالإحسان إلى مَنْ دونك ، وسبق أنْ أوضحنا أن المغفرةَ تسبق الرحمةَ ، وهذه هى القاعدة العامة ، لكن قد تسبق الرحمةُ المغفرةَ ؛ ذلك لأن السَّلْب للشىء المذموم ينبغى أن يسبق النعمة ، أو : أن دَفْع الضرر مُقدَّم على جَلْب المنفعة .

وقد مثَّلْنا لذلك باللصِّ تجده فى دارك ، فتستر عليه أولاً حين لا تسلمه للبوليس ، ثم يرقّ له قلبك ، فتمتد يدُك إليه بالإحسان ، وهنا تسبق المغفرةُ الرحمةَ ، وقد تتصرف معه بطريقة أخرى ، بحيث تقدِّم فيها الرحمة على المغفرة . والمغفرة لا تكون إلا من الأعلى للأدنى ، فتستر على القبيح قُبْحه ، وأنت أعلى منه ، فلا يقال مثلاً للخادم : إنه ستر على سيده .

ثم يرسل لنا الحق - سبحانه وتعالى - هذه البرقية الدالّة على تأييده سبحانه لعباده المؤمنين : ﴿ إِذْ [١] جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا [٢] وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الأحزاب]

فالجنود تُؤذن بالحرب ، وجاءت نكرة مُبْهمة ، ثم جاءت نهاية هذه المعركة في هاتين الجملتين القصيرتين ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا .. ﴿٩﴾ ﴾ [الأحزاب] ولم يذكر ماهية هؤلاء الجنود ، إلا أنهم من عند الله ، جاءوا لردِّ هؤلاء الكفار وإبطال كيدهم .

ثم يأتي بمذكرة تفسيرية توضح مَنْ هم هؤلاء الجنود :

﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ [٣] وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ [٤] وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ ﴾

---

(١) ذلك يوم الخندق في غزوة الأحزاب ، قال ابن إسحاق : كانت في شوال من السنة الخامسة . وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك رحمه الله : كانت وقعة الخندق سنة أربع ، وهي وبنو قريظة في يوم واحد . (تفسير القرطبي ٧/٥٣٨٩) .

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٣/٤٧٠) : « هم الملائكة زلزلتهم وألقت في قلوبهم الرعب والخوف ، فكان رئيس كل قبيلة يقول : يا بني فلان إليَّ ، فيجتمعون إليه ، فيقول : النجاء النجاء ، لما ألقى الله عز وجل في قلوبهم من الرعب » .

(٣) قال ابن وهب : سمعت مالكاً يقول : ذلك يوم الخندق ، جاءت قريش من هاهنا ، واليهود من هاهنا ، والنجدية من هاهنا . قال القرطبي : يريد مالك أن الذين جاءوا من فوقهم بنو قريظة ، ومن أسفل منهم قريش وغطفان . [تفسير القرطبي ٧/٥٣٨٩] .

(٤) زاغ البصر : اضطرب ولم يحقق ما يرى . وقوله في وصف فزع بعض الناس في المدينة حين أحاطت بهم الأعداء في غزوة الأحزاب ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الأحزاب] أي اضطربت لشدة الفزع . القاموس القويم (١/٢٩٤) .

هذا وَصْف لما جرى فى غزوة الأحزاب التى جمعتْ فُلول أعداء رسول الله ، فقد سبق أنْ حاربهم مُتفرِّقين ، والآن يجتمعون لحربه ﷺ ، فجاءت قريش ومَنْ تبعها من غطفان وأسد وبنى فزارة وغيرهم، وجاء اليهود من بنى النضير وبنى قريظة ، وعجيب أنْ يجتمع كل هؤلاء لحرب الإسلام على ما كان بينهم من العداوة والخلاف .

وقلنا : إن أهل الكتاب كانوا يستفتحون برسول الله على كفار مكة ، ثم جاءت الآيات لتجعل من أهل الكتاب شهداء على صدْق رسول الله ، فقال تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) ﴾ [الرعد]

ولو قدَّر أهل الكتاب هذه الشهادة التى قرنها الحق سبحانه بشهادته ، لَكَان عليهم أنْ يؤمنوا بصدْق رسول الله ﷺ .

والمعنى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُم.. (١٠) ﴾ [الأحزاب] أى : اذكر يا محمد وتخيَّل وتصوَّر إذ جاءكم الأحزاب ، وتجمَّعوا لحربك ﴿ مِّن فَوْقِكُمْ.. (١٠) ﴾ [الأحزاب] أى : من ناحية الشرق ، وهُمْ : غطفان ، وبنو قريظة، وبنو النضير ﴿ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ.. (١٠) ﴾ [الأحزاب] أى : من ناحية الغرب وهم قريش ، ومَنْ تبعهم من الفزاريين والأسديين وغيرهم ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ.. (١٠) ﴾ [الأحزاب] أى : اذكر إذ زاغت الأبصار ، ومعنى زاغ البصر أى : مال ، ومنه قوله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) ﴾ [النجم]

فـ (زاغت الأبصار) يعنى : مالتْ عن سَمْتها وسنمها ، وقد خلق الله العين على هيئة خاصة ، بحيث تتحرك إلى أعلى ، وإلى أسفل ، وإلى اليمين ، وإلى الشمال ، ولكل اتجاه منها اسم فى اللغة ، فيقولون : رأى أى : بجُمْع عَيْنه ، ولمح بمؤخَّر مُوقه ، ورمق أى : من ناحية أنفه .. الخ

فسَمْت العين وسَنَمها أنْ تتحرك فى هذه الاتجاهات ، فإذا فزعتْ من شىء أخذ البصر ، مال عن سَمْته من التحول ، لذلك يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٩٧) ﴾ [الأنبياء]

وقال : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) ﴾ [إبراهيم] وشخوص البصر أنْ يرتفع الجَفْن الأعلى ، وتثبت العين على شىء ، لا تتحرَّك إلى غيره .

وفى موضع آخر قال تعالى عن المنافقين والمعوِّقين : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب]

لأن الهول ساعة يستولى على الأعين ، فمرة تشخص العين على ما ترى لا تتعداه إلى غيره من شدة الهول ، ومرة تدور هنا وهناك تبحث عن مفرٍّ أو مخرجٍ مما هى فيه ، فهذه حالات يتعرَّض لها الخائف المفزَّع .

وقوله تعالى : ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ .. (١٠) ﴾ [الأحزاب] معلوم أن الحنجرة أعلى القصبة الهوائية فى هذا التجويف المعروف ، فكيف تبلغ القلوبُ الحناجرَ ؟ هذا أثر آخر من آثار الهول والفزع ، فحين يفزع الإنسان يضطرب فى ذاته ، وتزداد دقَّات قلبه ، وتنشط حركة التنفس ، حتى ليُخيَّل للإنسان من شدة ضربات قلبه أن قلبه سينخلع من مكانه ، ويقولون فعلاً فى العامية (قلبى هينط منى)

وقوله تعالى : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) ﴾ [الأحزاب]

أى : ظنوناً مختلفة تأخذهم وتستولى عليهم ، فكلٌّ له ظنٌّ يخدم غرضه ، فالمؤمنون يظنون أن الله لن يُسلمهم ، ولن يتخلى عنهم ، والكافرون يظنون أنهم سينتصرون وسيستأصلون المؤمنين ، بحيث لا تقوم لهم قائمة بعد ذلك .

ونلحظ فى هذه الآية أن الحق سبحانه لا يكتفى بأنْ يحكى له ما حدث ، إنما يجعله ﷺ يستحضر الصورة بنفسه ، فيقول له : اذكُرْ إذ حدث كذا وكذا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾(١)

﴿ هنالك ابْتُلِى الْمُؤْمِنُونَ ..(١١)﴾ [الأحزاب] أى : اختُبِروا وامْتُحنوا ، فقَوِىُّ الإيمان قال : لن يُسلمنا الله . والمنافق قال : هى نهاية الإسلام والمسلمين ﴿ وَزُلْزِلُوا .. (١١)﴾ [الأحزاب] الزلزلة هى الهزة العنيفة التى ينشأ عن قوتها تَخَلْخل الأشياء ، لكن لا تقتلعها ، والمراد أنهم تعرَّضوا لكرب شديد زلزل كيانهم ، وميَّز مؤمنهم من منافقهم ؛ لذلك يقول تعالى بعدها :

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾

(١) هنا : للقريب من المكان . وهنالك : للبعيد . وهناك : للوسط . ويشار به إلى الوقت . أى : عند ذلك اختبر المؤمنون ليتبين المخلص من المنافق . [قاله القرطبى فى تفسيره ٥٤٠٦/٧] .

المنافقون هم أنفسهم الذين في قلوبهم مرض ، فهما شيء واحد ، وهذا العطف يُسمُّونه « عطف البيان » .

والغرور أنْ تخدع إنساناً بشيء مُفْرح في ظاهره ، محزن في باطنه ، تقول : ما غرَّك بالشيء الفلانى كأن في ظاهره شيئاً يخدعك ويغرّك ، فإذا ما جئتَ لتختبره لم تجده كذلك [1].

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ [2] لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾

﴿ وَإِذْ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحزاب] هنا أيضاً بمعنى : واذكر ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحزاب] يثرب : اسم للبقعة التى تقع

---

(١) أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة قال : قال المنافقون يوم الأحزاب حين رأوا الأحزاب قد اكتنفوهم من كل جانب ، فكانوا في شك وريبة من أمر الله ، قالوا : إن محمداً كان يعدنا فتح فارس والروم ، وقد حُصرنا ههنا حتى ما يستطيع يبرز أحدنا لحاجته ، فأنزل الله ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحزاب] [ذكره السيوطى في الدر المنثور ٦/٥٧٧] .

(٢) يثرب هي : المدينة ، وسماها رسول الله طَيْبة وطابة . وقال أبو عبيدة : يثرب اسم أرض والمدينة ناحية منها . وقال السهيلى : سميت يثرب لأن الذى نزلها من العماليق اسمه يثرب ابن عميل بن مهلائيل بن عوص بن عملاق . [تفسير القرطبى٧/ ٥٤٠٧] قال ابن كثير في تفسيره : « قال السهيلى : روى عن بعضهم أنه قال : إن لها في التوراة أحد عشر اسماً : المدينة وطابة وطيبة والمسكينة والجابرة والمحبة والمحبوبة والقاصمة والمجبورة والعذراء والمرحومة » (تفسير ابن كثير ٣/٤٧٢) . ويقول ابن منظور في لسان العرب [مادة : ثرب] : « سماها طيبة وطابة كراهية التثريب ، وهو اللوم والتعيير » .

فيها المدينة ، وقد غيَّر رسول الله ﷺ اسمها إلى (طَيْبة) .

ومعنى : ﴿ لا مُقَامَ لكُمْ .. (١٣) ﴾ [الأحزاب] أي : في الحرب ﴿ فارْجِعُوا .. (١٣) ﴾ [الأحزاب] يعني : اتركوا محمداً وأتباعه في أرض المعركة واذهبوا ، أو ﴿ لا مقام لكُمْ (١٣) ﴾ [الأحزاب] أي : على هذا الدين الذي تنكرونه بقلوبكم ، وتساندونه بقوالبكم .

ثم يكشف القرآن حيلة فريق آخر يريد الفرار ﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ .. (١٣) ﴾ [الأحزاب] أي : في عدم الخروج للقتال ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ .. (١٣) ﴾ [الأحزاب] أي : ليست مُحصَّنة ، ولا تمنع مَنْ أرادها بسوء . يقال : بيت عورة إذا كان غير مُحْرَز ، أو غير محكم ضد مَنْ يطرقه يريد به الشر ، كأن يكون منخفضاً أو مُتهدِّم الجدران يسهل تسلُّقه ، أو أبوابه غير محكمة .. إلخ .

كما نقول في العامية (مَنَطٌّ) ، لكن الحق سبحانه يثبت كذبهم ، ويبطل حجتهم ، فيقول ﴿ وما هِيَ بِعَوْرَةٍ (١٣) ﴾ [الأحزاب] إنما العلة في ذلك ﴿ إن يريدون إلاَّ فرارا (١٣) ﴾ [الأحزاب] أي : من المعركة إشفاقاً من نتائجها ومخافةَ القتل .

ثم يقول سبحانه :

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (١٤) ﴾

﴿ دُخِلَتْ عليهم (١٤) ﴾ [الأحزاب] أي : البيوت ﴿ مِنْ أَقْطَارِهَا (١٤) ﴾ [الأحزاب] من نواحيها ﴿ ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ (١٤) ﴾ [الأحزاب] أي : طُلب منهم الكفر ﴿ لآتَوْها (١٤) ﴾ [الأحزاب] يعني : لكفروا . ﴿ وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ

يَسيراً (١٤) ﴾ [الاحزاب] يعنى : ما يجعل الله لهم لُبْثاً وإقامة إلا يسيراً ، ثم ينتقم الله منهم [1] .

﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ ﴾

معنى ﴿ عَاهَدُوا اللَّهَ .. (١٥) ﴾ [الأحزاب] أخذ الله عليهم العهد وقَبلوه ، وهو ما حدث فى بيعة العقبة حين عاهدوا رسول الله على النُّصْرة والمؤازرة . أو : يكون الكلام لقوم [2] فاتتهم بدر وفاتتْهم أُحُد ، فقالوا : والله لئن وقفنا فى حرب أخرى لنبلونّ فيها بلاءً حسناً .

وعَهْد الله هو الشىء الذى تعاهد الله عليه ، وأول عهد لك مع الله تعالى هو الإيمان به ، وما دُمْتَ قد آمنتَ بالله فانظر إلى ما طلبه منك وما كلَّفك به ، وإياك أنْ تُخلَّ بأمر من أموره ، لأن الاختلال فى أى أمر تكليفى من الله يُعَد نقصاً فى إيمانك بالله ، فلا يليق بك أنْ تنقض ما أكَّدته من الأيْمان ، بل يلزمك أن توفي به ؛ لأنك إنْ وفَّيْتَ بها وُفِّى لك بها أيضاً ، فلا تأخذ الأمر من جانبك وحدك ، ولكن انظر إلى المقابل .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية (٣/٤٧٢) : « يخبر تعالى عن هؤلاء الذين ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) ﴾ [الاحزاب] أنهم لو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة وقطر من أقطارها ثم سُئلوا الفتنة وهى الدخول فى الكفر لكفروا سريعاً ، وهم لا يحافظون على الإيمان ، ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع . هكذا فسره قتادة وعبد الرحمن بن زيد وابن جرير » .

(٢) قال يزيد بن رومان : هم بنو حارثة ، هَمُّوا يوم أُحد أن يفشلوا مع بنى سلمة ، فلما نزل فيهم ما نزل عاهدوا ألا يعودوا لمثلها ، فذكر الله لهم الذى أعطوه من أنفسهم . [قاله القرطبى فى تفسيره ٧/٥٤١٠] .

واعلم أن الله مُطلع عليك ، يعلم خفايا الضمائر وما تُكنّه الصدور ، فاحذر حينما تعطى العهد أنْ تعطيه وأنت تنوى أنْ تخالفه ، إياك أنْ تعطى العهد خداعاً ، فربك - سبحانه وتعالى - يعلم ما تفعل .

﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾

قوله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ قُلْ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : لهؤلاء الذين يريدون الفرار من المعركة ﴿ لَن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأحزاب] والقرآن هنا يحتاط لمسألة إزهاق الروح ، وسبق أن تحدثنا عن الفرق بين الموت والقتل ؛ لذلك يقول تعالى عن نبيه محمد : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ .. ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران]

فالموت لا يقدر عليه إلا واهب الحياة سبحانه ، ويكون بنقض الروح أولاً بأمر خالقها ، ثم يتبعه نَقْض البنية ، أما القتل فيقدر عليه الخَلْق ، ويتم أولاً بنقض البنية الذى يترتب عليه إزهاق الروح ؛ لأن البنية لم تَعُدْ صالحة لاستمرار الروح فيها ، بعد أنْ فقدتْ المواصفات المطلوبة لبقاء الروح .

والفرار لن يُجدى فى هذه المسألة ؛ لأن لها أجلاً محدداً ، سواء أكان بالله واهب الحياة ، أو كان بفعل واحد من الخَلْق عصى أمر الله ، فهدم البنية التى بناها الله ، وما جدوى الفرار من المعركة ، وقد رأينا مَنْ شهد المعارك كلها ، ثم يموت على فراشه ، كخالد بن الوليد الذى